تصـــديــر

هذه الدراسة :

محاولة لتتبع الرحلة العربية : نشأتها، وتطورها من حيث هى، ثم المراحل التى مرت بها - نصاً مدوناً - حتى أمست أثرا أدبيا، وغاية لذاتها.

وقد كان على هذه الدراسة أن تلتفت إلى شيئين :

أولهما: أنه ليس ثمة دراسات نقدية حقيقية فى الأدب العربى توفى هذا النوع حقه.

وثانيهما: أن الدراسات الحالية تقتصر على رحالين بأعينهم، ولا تتعداهم، مما ألحق الغبن بآثار أدبية ممتازة، وبرحالين مميزين، وبفترات زمنية بعينها.

ولهذا، اقترحت الدراسة بعض الأسس التى يمكن - على هدى منها - دراسة هذا النوع. وهى أسس قابلة للمناقشة والتعديل - طالما كان ذلك فى صالح هذا النوع. كما سعت إلى تتبع الجذور الأولى لتدوين الرحلات، والمتمثلة فى تسرب بعض تفاصيل الرحلات إلى كتب الجغرافيا الوصفية التى اعتمدت الدراسة الميدانية منهجا، ثم فى كتب الأدب الجغرافى التى أحدثت شيئا من التوازن بين الرحلة - كأدب - والعلم، ثم أخيرا تستقل الرحلة بذاتها، ويدرك العرب أهميتها، فينشئون لها نوعا يواكبها هو «أدب الرحلة».

ولتحقيق هذا كله، انقسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وخاتمة، كان الفصل الأول منها بمثابة محاولة للاقتراب من عالم الرحلة العربية، معرفا بها فى اللغة والاصطلاح، وبالمراحل التى مرت بها من حيث هى، ومعللا لتوقف درسها عند نهاية القرن الرابع الهجرى، ومبينا لأنواعها. ثم سعى إلى التمييز بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافى وأدب الرحلات ـ تلك المراحل التى مرت بها الرحلة أثراً مدوناً، ليخلص إلى مهاد نظرى يتعرض لمفهوم أدب الرحلات من خلال التعريفات المتيسرة ومناقشتها، مركزا على الخصائص المميزة للمضمون، ثم الخصائص المميزة

للشكل من حيث: طريقة التدوين، والبنية، واللغة.

ثم تنتقل الدراسة إلى الجانب التطبيقى، فتتعرض للنصوص المصنفة فى إطار كل مرحلة، مخصصة الفصل الثانى لكيفية تناول كتب الجغرافيا الوصفية للرحلة ومعطياتها من خلال سبعة نصوص، ثم تخصص الفصل الثالث لكيفية تناول كتب الأدب الجغرافى للرحلة ومعطياتها من خلال سبعة نصوص أيضا، ثم تنتقل إلى درس كيفية تناول كتب أدب الرحلات للرحلة ومعطياتها من خلال عشرة نصوص.

ووفقا لتنوع النصوص تنوعت طريقة التناول، وكان التركيز على النص نفسه فى الغالب - إلا أن يكون الرحال مجهولا، فيتم التعريف به من خلال نصه، وما يمكن استنباطه عن الرحال من بين ثناياه.

وفى الغالب يتم التعريف بالنص وصاحبه أولا، ثم تتم دراسته من خلال خصائصه المميزة، مع تجنب الأحكام التقويمية ما أمكن ذلك - فتحا لباب الاجتهاد فى هذا النوع الذى مازال ينتظر الكثير من الدراسات كى تفى ببعض جوانبه.

فى سبيل التقويم الموضوعى لتراث الرحلات المندرج فى الإطار الزمنى لهذه الدراسة بفروعه الثلاثة : الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافى، وأدب الرحلات - لابد من الوقوف على واقعه المعاصر - أعنى الحالة التى وصلنا عليها. وهذا الوقوف ضرورى لأنه سيوضح مدى جدوى دراسة نصوصه.

الحقيقة التى يجب إقرارها، أن هذا التراث وصلنا فى صورة مشوهة وناقصة لا تساعد على وصفه وتقويمه بدقة، وإن كان هذا لا يعنى الانتظار حتى تكتمل الصورة، والخلود إلى الراحة، بل المطلوب الاجتهاد للخروج بأفضل النتائج مما هو متاح.

العوامل التى أدت لهذه الصورة المشوهة كثيرة، منها ما هو متعمد، ومنها ما هو غير متعمد :

أول هذه العوامل عائد إلي الرحالة أنفسهم، فلكل كتاب مسودة أو اثنتان أو ثلاث. وهذا التعدد أدى إلى عدم وصول النص فى صورة موحدة، خاصة أن الناقلين أخذوا عن هذه النسخ المتعددة، مما رسخ هذا الواقع.

ثانياً: بعض الرحالة لم يدونوا رحلاتهم بأنفسهم، بل عهدوا إلى بعض معاصريهم بتدوينها - بعد حكاية الخطوط العامة، مع ترك الحرية لهم لنسج تفاصيل حولها، أو بتسليمهم المسودات لينقحوها... إلى آخر ذلك من ضروب الاتكاء على الغير.

ثالثا : استنادا لأسباب غير موضوعية قام بعض اللاحقين باختصار النصوص، وذلك بتجريدها من كل ما هو أدبى ذاتى، والإبقاء على كل ما هو علمى موضوعى، وتكاد تهمة الاختصار تلصق بمعظم النصوص التى وصلتنا.

رابعاً : هناك نصوص ضاعت كاملة، وأخرى ضاعت، ولكن وصلتنا أجزاء منها منقولة فى المعاجم والموسوعات الجغرافية، وهى نصوص مختارة للاستشهاد فحسب، ولذا فإن كل ما يتصل بشخص الرحال - أولا يفيد فى موضع الاستشهاد - محذوف منها.

خامسا: يأتى دور النساخ الذين جنوا جناية كبيرة على هذه النصوص، فلم يكونوا أمناء فى الغالب، أو كان مستواهم العلمى ضعيفا، فتدخلوا تدخلا سافرا فى النصوص، سواء بحذف مالا يعجبهم أو بإضافة ما يروق لهم، أو بالتعليق عليها، المهم أن ضروبا من التشويه تسبب فيها النساخ.

سادسا : ما لم تصبه يد الضياع، كان فى حاجة إلى تحقيق علمى، والذى حدث أن الذى اضطلع بهذه المهمة مجموعة من المستشرقين متعددى الأهواء والمشارب، منهم المتقن لعمله، ومنهم الضعيف المتهاون. صحيح أن خدمات جليلة قدموها لهذا الفرع من التراث العربى، ولكن - فى المقابل - هناك نماذج صارخة لانعدام الأمانة العلمية والتشويه المتعمد، تجعل مراجعة ما نشر ضرورة ملحة. كما أن معظم الطبعات نشرت فى القرن التاسع عشر، وهى طبعات رديئة وصعبة القراءة، تستلزم جهودا مخلصة لإعادة نشرها فى صورة لائقة. يضاف إلى ذلك كله أنها

نادرة، يصعب الحصول عليها.

سابعاً : زد علي ذلك هذا التقاعس من قبل الباحثين العرب تجاه هذا الفرع، وانشغالهم بنصوص أقل قيمة، أو الترجمة عن اللغات الأخرى، قاطعين بذلك كل صلة لهم بهذه النصوص. والجغرافيون المعاصرون معنيون بهذا الاتهام أساسا.

إن كل هذه العوامل تضافرت لتقدم صورة غير حقيقية لهذا الفرع القيم من تراثنا، ولتضع عقبات جمة أمام الراغبين فى دراسته، رغم «أنه يقدم مادة دسمة متعددة الجوانب، لا يوجد مثيل لها فى أدب أى شعب معاصر للعرب، وقد أثبت البحث العلمى المعاصر أن مادة الأدب الجغرافى العربى أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى أيامنا هذه»(١)

وهناك عوامل ساعدت على عدم استقلال أدب الرحلات كفن أدبى عربى، لعل أهمها ما يلى:

١ - أن معظم الرحالة كانوا ينتقدون سابقيهم ممن كتبوا فى مجالهم .ويزرى الواحد منهم بجهود غيره، مدعيا أنه السابق الذى لا يلحق، وأنه يخترع على غير مثال، ويمهد لهذا الادعاء بنقد جهود سابقيه نقدا سلبيا.

٢ - أن الجهد النقدى البناء انعدم، بسبب عدم وضوح معالم هذا الفن الأدبى، ويسجل هنا أن الحركة التنظيرية لهذا الفن الأدبى معدومة تماما، وأن أدب الرحلات لم يصنف فى فنون النثر العربى ولو مرة واحدة.

٣ - أن أصحاب الإسهامات لم يكونوا من الأعلام البارزين لعصرهم، بل كان أغلبهم دائم الترحال فى البلاد، ولهذا فإن الاهتمام بما يكتبون لم يتوفر.

٤ - وهؤلاء المساهمون لم يقصدوا للتجويد الفنى فى أغلب الأحيان، كما تجنبوا الحديث عن ذواتهم، مما ساعد على نسبة ما كتبوا للعلم دون الأدب.

٥ - بل إن بعضهم كان يرى الرحيل الدائم مبررا للتقصير والخلل فى مؤلفاته،

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى: ـ أغناطيوس كراتشكوفسكى. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥ ، ٢٥/١

ويبرز فى هذا المجال السعودى وابن الفقيه.

٦ - يضاف إلى ذلك أن الغبن أصاب أصحاب الإسهامات المتميزة فى هذه الفترة؛ بسبب التركيز على رحلتى ابنٍ جبير وابن بطوطة كنموذجين لأدب الرحلات العربى. وليت هذين النصين درسا دراسة فنية تكون أنموذجا لدراسة أدب الرحلات، إنما ما حدث هو أن الدراسين لهما اكتفوا ببعض التعليقات الجزئية حول بعض المواضع، وهى تعليقات عامة تتناول النواحى الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية، والدينية.. وغيرها.

وكى توجد نماذج متميزة من «أدب الرحلات»، لابد أن يضعها رحالون متميزون. وهذا التميز توفر بصورة لافتة لدى الرحالة العرب، ولكن المؤسف أنه لم ينعكس على نماذجهم وإسهاماتهم نظرا لظروف ذاتية وموضوعية مرتبطة بعصرهم.

إن أغلب النماذج التى تتناولها هذه الدراسة قضى أصحابها معظم حياتهم راحلين، حتى إن الاستقرار كان أمرا غريبا عليهم، والنماذج المبرزة لهؤلاء تتمثل فى المسعودى، وابن حوقل، والمقدسى.

ومن خلال التفاصيل الجزئية الصغيرة التى ندت عنهم - دون قصد ـ أمكن التعرف على ملامح شخصياتهم، وهكذا يمكن أن نقرر - بكل اطمئنان - أن شروط الرحال المتميز توفرت فيهم. بل إنهم قدموا خدمة جليلة لهذا الفن حين أفردوا قطعا من كتبهم للحديث عن رحلاتهم والظروف المحيطة بها، ويبرز فى هذا المجال كل من اليعقوبى والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى، إضافة إلى النموذج المتميز للغاية - أعنى ابن فضلان الذى وصل بهذا الفن إلى ذروته، والذى لقى من الغبن - بين مواطنيه - ما يستدعى الدهشة.

ومعلوم أن الشعر فن العرب المفضل، وأن النثر لم يلق من العناية ما لقيه الشعر، وأن العرب لم يدونوا معارفهم بشكل منظم إلا بعد ظهور الإسلام بفترة ليست وجيزة، ومن ثم فإن تدوين النماذج التى تتضمن حصاد رحلات تأخر للغاية، حتى وصل العرب إلى مرحلة من التقدم الحضارى تكفل لهم الإحساس بخطر وأهمية هذا النوع من التدوين. يضاف إلى ذلك أن معظم أصحاب الرحلات كانوا أناسا

عاديين، ولم يكن يربطهم بالسلطة صلة، ولذا لم تدر كتاباتهم فى فلكها، ومن ثم كان الإهمال مصيرها. غير أن بعض الرحالة تنبه لهذا الأمر، فأهدى كتابه لأحد رموز السلطة، ثم أعاد إهداءه إلى آخرين ممن يناوئون الأولين، وأجرى تعديلات تتفق وميول الأسياد الجدد.

وهذا السلوك - وإن كفل لصاحبه ذيوعا وشهرة، ولكتابه استمرارا - يُسجل وجود نماذج عالية النبرة من النفاق السياسى الممجوج، ويكفى ذكر موقف ابن حوقل من الحمدانيين، والأندلسيين، والفاطميين، وموقف المقدسى من السامانيين، والفاطميين كدليل على ذلك. ولكن يسجل - فى المقابل - كل تقدير لابن فضلان، لأن موقفه كان دوما فى صالح أمته وقضاياها، ولم يلاحظ عليه أى ميل لنفاق أو مجاملة.

ولعل الميزة الكبرى لبعض النماذج التى تنتمى لهذا النوع، أنها لم تكتف بتسجيل تجاربها فحسب، وإنما حرصت على تضمين تجارب السابقين المدونة فى نصوص قصيرة، ومن ثم حفظتها من الضياع. حتى إن القيام بهذا الدور الإيجابى غطى أحيانا - على الإسهام الأصلى لصاحب الكتاب. ومن أبرز النماذج فى هذا الصدد، ما فعله ابن خرداذبه وابن الفقيه،وابن رسته، ولكن أبرزها - على الإطلاق - وأكثرها قربا من أدب الرحلة، ما خطه قلم بزرك بن شهريار الناخذاه الرامهرمزى، وسيظل ما فعله الرجل مدعاة للإعجاب والتقدير، والدعوة موجهة للباحثين كى يقتربوا من عالم هذا الكتاب النادر القيم والمغبون فى آن.

وما فعله أصحاب المعاجم والموسوعات الجغرافية المتأخرون - من حفظ مثل هذه النماذج - يستوجب التقدير، فلولاهم لضاع معظم هذا التراث، ولأصبحت معرفتنا به ضحلة للغاية. إن المصادر الوفيرة التى اعتمد عليها هؤلاء المتأخرون فى كتاباتهم لدليل على الثراء الكمى والنوعى الذى تميز به هذا الفرع من تراثنا.

والظاهرة اللافتة فى هذه النصوص المضمنة أنها قصيرة نسبيا، مما يعطى انطباعا بأن أغلبها كان عبارة عن تقارير رسمية فى البداية، وأن التركيز - فيما وصلنا منها كاملا - كان على الرحلة نفسها ،ولذا فإنها أقرب إلى أدب الرحلات منها إلى

الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافى. ومما يلاحظ أيضا أن النصوص المعتمدة على رحلات، والمصنفة على أنها أدب جغرافى أو جغرافيا وصفية - أطول - فى مجموعها العام - من النصوص المصنفة على أنها من أدب الرحلة، وأن الأخيرة لم تنل اهتماما كافيا؛ نظرا لأن التركيز على الرحلة ذاتها وعلى انطباعات الرحال وذاته - لم يكونا قد نالا القدر الواجب من التفهم والاحترام والتقدير، وذلك رغم أن النصوص المنتمية لأدب الرحلات تميزت بالأصالة والطرافة على مختلف الأصعدة، ومثَّل كل نص نموذجا فريدا غير مسبوق، وجهدا غير مسروق، ولذا فإن مضمون وشكل كل نص يختلف عما سبقه وما لحقه، مما يشى بأن مرونة أدب الرحلات لاحد لها.

وهذا التفرد والتميز أدى إلى نتيجة مهمة هى : أن أدب الرحلات لم يرتبط تطوره بتقدم الزمن، فثمة نماذج من القرن الثالث الهجرى تتفوق - فنيا - على مثيلاتها من القرن الرابع الهجرى، ونماذج من النصف الأول من القرن الرابع تتفوق على نماذج من النصف الثانى منه.. إلخ.

ورغم أن نصوص الرحلات تميزت بالأصالة، ومحاولة تجنب التكرار، فإن السمات المشتركة بين النصوص المندرجة فى إطار كل اتجاه من اتجاهات تدوين الرحلة - واضحة. ولكن الملاحظ - فيما يتعلق بالمضمون - أن نصا من هذه النصوص جميعا لم يخل من الطابع المعرفى أو الموسوعى، ويبدو أن التعليم كان هدفاً أساسيا بديهيا لدى كل الرحالة، ولكن عنصر الإمتاع هو الذى كان يحتاج إلى تأكيد.

يلى الطابع المعرفى فى تسبة الشيوع - الطابع الشعبى، فالنقدى، فالفكاهى، فالوثائقى، فالفردى، فالإنسانى، بينما يختفى الطابعان : الجمالى، والكشفى تماما من النصوص المندرجة فى إطار هذه الحقبة.

ورغم أن معظم النصوص يغلب عليها طابع بعينه، فإن نصوصا أخرى تتميز باحتوائها على عدة طوابع مضمونية، كنصوص: التاجر سليمان، وأبى دلف، والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى، والإمام الشافعى، وابن فضلان.

ولعل أكثر هذه النصوص ثراء من حيث المضمون - نص المقدسى، الذى بذل فيه صاحبه جهدا كبيرا، وضمنه كل ما ترامى إلى علمه بعد تنظيمه وتبويبه، ولهذا فإن المقدسى نال شهرة كبيرة فى أوساط الاستشراق، وأصبح مصدرا مهما لكل الدراسات الحضارية التى تتناول عصره، بل إن كتب الرحلات - بعامة - أصبحت المصدر الأهم لدراسة هذه الحقب، حتى إن باحثا ممتازا مثل «آدم متز» اعتمد هذه النصوص كوثائق يستند عليها لرسم لوحة حضارية غاية فى الروعة للقرن الرابع الهجرى، وهذا ما يمكن ملاحظته بسهولة بعد تصفح كتابه: «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى».

والغريب أنه : رغم ذلك الاهتمام بها كمصادر حضارية، فإنها غير معتبرة كفن أدبى مستقل، ولعل ذلك يعود إلى موقف الرحالة أنفسهم، وعدم حرصهم على تأكيد المضامين الفنية فى كتاباتهم.

إن الاهتمام بالطابع المعرفى أمر طبيعى، والاهتمام بالطابع الشعبى كذلك. ولعل الاهتمام بالطابع الأخير يعود إلى إدراك الرحالين أنهم متوجهون بكتاباتهم إلى عامة الناس - الجمهور، وأنهم لا يقدمونها إلى طبقات خاصة فى المجتمع، ولذا فإن مراعاة ذوق الجمهور كان أمرا طبيعيا. وكان اهتمام الرحالة بالطابع النقدى دليلا على انتقالهم من مرحلة التسجيل والنقل الحرفى، إلى مرحلة التحليل والتفسير، ثم التقويم. وهذا أثر طيب من آثار الرحلات نفسها، ولعل أبرز من انتبهوا لهذا الجانب : المقدسى والمسعودى وابن حوقل والتاجر سليمان وابن فضلان - وإن اختلط الطابع النقدى عند ابن فضلان، وابن حوقل، والمقدسى بالطابع الفكاهى الذى يحمل فى طياته سخرية من فئات وأجناس بعينها.

وإهمال الطوابع : الفردية، والإنسانية، والجمالية، والكشفية هو سمة هذه المرحلة ككل، وإذا كان بعض الرحالة قد تنبه لقيمتها، فإن توجههم كان توجها فرديا لا ينفى القاعدة العامة، ولعل أكثر الرحالين تضمينا لهذه الطوابع كان المقدسى، يليه بزرك بن شهربار، وابن فضلان.

وفيما يتعلق بسيادة طوابع مضمونية بعينها عند أصحاب الاتجاهات المختلفة -

يشار إلى أن الطابع المعرفى كان قاسما مشتركا عند أصحاب «الجغرافيا الوصفية» تلاه الطابعان، الشعبى، والوثائقى. أما أصحاب نصوص «الأدب الجغرافى» فاشتركوا فى طوابع مضمونية ثلاثة : الطابع المعرفى، والطابع الشعبى، والطابع النقدى، مع إضافة طوابع أخرى فى حال المقدسى خاصة، والتركيز على الطابع الفكاهى عند ابن حوقل. أما أصحاب نصوص «أدب الرحلات» فقد تصدر الطابع المعرفى قائمة اهتماماتهم، تلاه الطابع الشعبى، فالنقدى، فالفكاهى، فالفردى، مع الإشارة إلى التميز الواضح لكل من : ابن فضلان، وبزرك بن شهريار، والأسف لضياع النص الكامل لرحلات الغزال الأندلسى، والإشادة بالدور المتميز الذى لعبه العلماء فى هذا المجال - خاصة الفقهاء وأصحاب الحديث،.ولعل نموذجى الإمام الشافعى والإمام الرازى يدلان على ذلك. والملاحظة الهامة - فى هذا الصدد - أن أصحاب كتب أدب الرحلات كانوا أكثر تفتحا من أصحاب كتب الأدب الجغرافى والجغرافيا الوصفية، فالصنفان الأخيران اقتصرا على وصف مملكة الإسلام بعامة أو إقليم بعينه خاصة، بينما تعدى أصحاب كتب أدب الرحلات هذه الحدود، وجاءت أغلب أوصافهم لأراضٍ وشعوب غير عربية أو إسلامية، مما يعنى انفتاحا مستنيرا على العالم، وإدراكا حقيقيا لدور الرحلة والرحالة فى التقريب بين الشعوب.

وفيما يتعلق بطريقة التدوين، يلاحظ أن التدوين المكانى كان السائد فى هذه الحقبة، تلاه التدوين الزمانى فى كتب أدب الرحلات خاصة، ثم التدوين الاستدعائى، وأخيرا التدوين الموضوعى، بينما لم يحظ التدوين الانتقائى بنصوص مفردة إلا فى فترات تالية.

وبينما يسيطر التدوين المكانى على نصوص الجغرافيا الوصفية، ينازعه التدوينان: الموضوعى والاستدعائى فى حال نصوص الأدب الجغرافى، ويشارك التدوين الزمانى التدوين المكانى فى كل نصوص أدب الرحلات، ولعل هذا يشير إلى ضرورة تلازمهما فى أى نص من هذا النوع.

طبيعى أن يسود التدوين المكانى نصوص الجغرافيا الوصفية، بينما يعنى تبادله مع التدوين: الاستدعائى والموضوعى - فى كتب الأدب الجغرافى - أن أصحابها -

وإن كانوا يكتبون علما، فإنهم لم يغفلوا الجوانب الأدبية، وحاولوا أن يوازنوا بين الجانبين، ولكن كفة العلم كانت ترجح دائما. ولم يتحقق التوازن بين كفتى العلم والأدب إلا فى كتب أدب الرحلات التى مزجت الزمان والمكان، واعتمدت - فى المقام الأول - على شخص الرحال الذى كفل الترابط بين أجزاء العمل الواحد، بحيث دارت جميعا فى فلكه، ولم تشذ عنه، فكان عامل توازن وجذب، لا عامل تفريق وتمزيق.

إن شخص الرحال يكاد يكون مختفيا فى نصوص الجغرافيا الوصفية، بينما يظهر على فترات متقطعة فى حال الأدب الجغرافى، أما فى أدب الرحلات فحضوره دائم وفاعل. وهذا الحضور هو الذى يكفل الوحدة الموضوعية للعمل، ويضفى عليه السمة الفنية، مما يجعله جديرا بالانضمام إلى حظيرة الأدب.

ومن حيث البنية، يلاحظ أن البنية المحورية تسيطر على أغلب نصوص الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافى، ولا تترك للبنية النمطية إلا نصين فقط، بينما العكس حادث فى حال نصوص أدب الرحلات، إذ تسيطر البنية النمطية ولا تترك إلا نصا واحدا للبنية المحورية، بينما لا تحظى البنيتان : الانتقائية أو الفنية بنصوص مفردة، إنما يمكن القول : إنهما متضمنتان بشكل أو بآخر فى معظم النصوص. ويعنى هذا أن البنية المحورية تناسب الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافى؛ لأن الجانب العلمى أكثر وضوحا فيهما، وأن البنية النمطية التي تتبع خط سير الرحلة من لدن التفكير فى انطلاقها وحتى عودتها هى أنسب البنى لأدب الرحلات، لأنها تتيح التركيز على الرحلة نفسها، وما يحدث للرحال فيها، مما يجعل المجال واسعا لتضمين العناصر الأدبية.

إنه لا يمكن فرض طريقة تدوين معينة، أو بنية بعينها، على الرحال باعتباره فنانا، وإنما يمكن استخلاص أن ثمة طريقة تدوين مثالية وأن ثمة بنية مثالية. وهذا الاستخلاص يتم عن طريق تتبع النصوص التطبيقية الإبداعية، وعندها يمكن القول: إن طريقة التدوين المثالية هى تلك الطريقة التى يتفق عليها الرحالون عمليا فى إبداعاتهم. ولاشك أن الرحالين كانوا يراعون عوامل عديدة أثناء شروعهم فى

إبداع أعمالهم، لعل أهمها مراعاة الجمهور الموجهة إليه هذه الأعمال، وهذا يعنى أن صلة وثيقة تربَط بين أدب الرحلات والجمهور.

العقبة الرئيسية التى تقف فى سبيل التقويم الدقيق لأسلوب أدب الرحلات العربية – فى هذه الحقبة – تتمثل فى عدم الثقة فى صحة ودقة النصوص التى وصلت إلينا، وانعدام الثقة هذا مرده إلى المؤلف نفسه، أو إلى الناسخ، أو إلى المحقق ـ إذا كان ضعيفا، ومع هذا – يمكن ملاحظة أن النشاط اللغوى لأصحاب كتب الرحلات ينقسم إلى قسمين رئيسين :

الأول : يتمثل فى تلك الملاحظات اللغوية التى حرص الرحالة على تدوينها عن كل إقليم يحلون به، أو عن جماعات لغوية، مما يساعد على رسم خريطة لغوية دقيقة للعالم الإسلامى فى حقب بعينها.

الثانى : يتمثل فى تلك السمات العامة التى تجمع كتاب هذا النوع، والتى تتناسب مع طبيعة الموضوع الذى يكتبون فيه، ويمكن – هنا – التفريق بوضوح بين فرق ثلاث :

الفريق الأول : يستخدم النثر العلمي الخالص، بكل ما له من خصائص وأهمها: السهولة، واليسر، وعدم التكلف أو الميل للتزيين، أو عدم استخدام الخيال بدرجاته كافة، والقصد المباشر إلى الهدف. وهذا الاتجاه غلب على أصحاب كتب الجغرافيا الوصفية.

الفريق الثانى : يستخدم النثر العلمى أيضا، ولكنه يزوده – من حين لآخر بعض اللمحات المنتمية للنثر الأدبى الفنى، خاصة استخدام المحسنات البديعية فى المقدمات: مقدمة الكتاب، ومقدمة كل فصل. ولهذا يمكن القول: إنه نثر علمى متأدب، وإن ظلت الصبغة العلمية مسيطرة. وهذا الاتجاه غلب على أصحاب كتب «الأدب الجغرافى».

الفريق الثالث: لم يكن فى ذهنه أنه يكتب فى الجغرافيا، ولذا جاء نثره أدبيا خالصا، يميل إلى القص البدائى الساذج الذى يتتبع خط سير الرحلة من لدن بدايتها، وحتى نهايتها.

إنه لا اهتمام لدى الفريق الأول بالأسلوب إلا باعتباره وسيلة فحسب، أما الفريق الثانى فظل موقفه مذبذبا بين : اعتبار الأسلوب وسيلة وبين اعتباره غاية، أما الفريق الثالث فقد أولى الأسلوب اهتماما أكبر، فأصبح قريبا من الغاية. ولكن ما يجب التنبيه عليه أن المنتمين للفريق الأخير كانوا بعيدين عن التكلف تماما، وأن أسلوبهم كان أدبيا، لأنه كان أداة تعبير عن موضوعات أدبية إنسانية، وعن تجارب انفعلوا بها، وتأملوها، ثم سجلوها فى شكل أدبى.

وعند أصحاب كتب «أدب الرحلة» ، وبعض أصحاب كتب «الأدب الجغرافى» الذين ينحون منحى أدبيا – ظهرت بعض الخصائص التى تميز أسلوب «أدب الرحلة» ، منها :

– استخدام المفردات السهلة المألوفة، وشرح المفردات الأعجمية ـ إن وردت. وقد يسهل الأسلوب ويرق حتى يصل إلى درجة استخدام الألفاظ العامية، أو لدرجة الركاكة.

– غلبة الجملة الفعلية على الجملة الاسمية، لدلالتها على الحركة، وهذه الجملة الفعلية تستخدم الأفعال الدالة على الحركة بصورة ملحوظة، وليس هذا غريبا، لأنه يتفق مع طبيعة الرحلة.

– وعند استخدام الجملة الاسمية، فإنها تكون قصيرة غالبا ؛بحيث تتفق وطبيعة الرحلة، كما تتكون من الركنين الرئيسيين للجملة: الاسم والخبر، وخاصة الاسم والخبر المفردين.

– وهم يميلون إلى استخدام السرد القصصى، باعتبار أن الرحلة حكاية لها بداية ووسط ونهاية، كما يستخدمون الوصف أحيانا حين ينفعلون إزاء موقف معين. أما أفضل ميزاتهم فتتمثل فى الاستخدام الذكى للحوار الكاشف الدال، ويبرز فى هذا المجال كل من: الإمام الشافعى، وابن فضلان، وبزرك بن شهريار، والمقدسى.

– ويبرز عند أصحاب كتب الأدب الجغرافى الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، كما يستشهدون بالشعر بشكل لافت. والملحوظ فى الاستشهاد بالشعر تكرار أشعار بعينها فى معظم كتب هذا الاتجاه.

– وثمة طوابع أسلوبية يختص بها كتاب معينون، مثل استخدام «كان» بكثرة، وتوكيد الضمير المتصل بضمير منفصل، وجر ضمير الغائب بالكاف، واستخدام أفعال التفضيل بكثرة.

– وبصدد الطابع الأخير يشار إلى ذلك النمط الذى نشأو نما على أيدى الرحالة، أى : نمط الفضائل والمثالب، فلا يكاد كتاب يخلو من المساهمة بنموذج أو أكثر من هذا النمط.

ويمكن – بشكل عام – القول بأن أسلوب الكتب المنتمية لأدب الرحلات كان أسلوبا خاصا، بحيث لم يتفق مع الأسلوب السائد فى عصره، فبينما كان استخدام المحسنات البديعية على أشده فى القرن الرابع الهجرى – على سبيل المثال – فإن لجوء أصحاب كتب أدب الرحلة إليه كان نادرا، بل إنهم عملوا على تجاوزه، واستخدام ما كان سهلا ممتنعا.

* * *

لقد سعت هذه الدراسة إلى رسم لوحة عامة للنصوص التى تناولت الرحلات حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، واستعانت على ذلك بأسس تم استخلاصها من النصوص نفسها، فكانت الدراسة النقدية معلما لها يميزها عن غيرها من الدراسات فى هذا المجال – تلك الدراسات التى أوقفت جهدها على الوصف، وركزت على المضمون – دون التفات إلى البناء الفنى.

والأمل أن تخرج إلى النور قريبا – بمشيئة الله – دراسات أخرى أعددتها لتكوّن سلسلة توفى هذا النوع حقه، وتكون حافزا للآخرين حتى يقتربوا من عالم هذا النوع الأدبى المتميز

ولا يفوتنى أن أقدم الشكر للأستاذ الدكتور حسين نصار والأستاذ الدكتور محمود على مكى لما قدماه لى من عون صادق، ونصح مخلص – حتى تخرج هذه الدراسة على هذا النحو.

والله أسأل أن يتقبل عملنا هذا خالصاً لوجهه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا – إنه نعم المولى، ونعم النصير.